الحركة الإباضية ومساعيها لتأسيس الدولة

أ.د. بلحاج معروف ،

قسم علم الآثار،

جامعة تلمسان.

Résumé :

Après avoir conduit un combat acharné contre le pouvoir à Damas dans le but d'instaurer un islam juste et égalitaire, et devant les féroces répressions des Omeyyades, les Ibadhites envisageaient de tenter leurs chances de fonder une communauté qui serait la réplique de celle du prophète plus le loin possible de l'Irak, ils choisissaient alors Ifriqiya.

Le terrain était ainsi favorable pour fonder un royaume kharidjite à Ifriqiya indépendant du pouvoir central à Damas, l'Ibadhisme fut alors introduit dans la région du Maghreb et se manifeste pour la première fois d'une façon certaine par la puissante insurrection à Tripoli d'Al-Harith et de Abd-al-djabbar en 131H / 748, cette tentative s'achevait par un échec.

Mettant à profit l'expérience tiré de leurs premières révolte, les Ibadhites s'organisent et nomme Abu-al-khattab comme Imam et fondent leur imamat à Tripoli en 141 H / 758. Mais malgré la préparation minutieuse et l'ampleur que prend le mouvement Ibadhite surtout après sa victoire glorieuse contre les Soufrites Warafdjouma à Kairouan dont ils s'emparèrent, les Ibadhites échouent une autre fois devant les troupes de l'armé Abbasside à Tawargha en 144 H / 761.

Cependant, le désastre de tawargha qui dispersa les forces Ibadhites ne fut pas décisif, le contre coup inattendu de cet important événement, fut justement la fondation d'un royaume Ibadhite au Maghreb central par Abd-ar-rahman ibn Rostom qui choisit Tahert comme capitale.

C'est ainsi après des années de lutte,que les Ibadhites ont arrivé à bâtir un royaume auquel ils aspiraient et qui dura un siècle et demi 161 – 296 H / .

المقدمة :

لمّا رأى رؤساء الحركة الإباضية في المشرق ضرورة توسيع رقعة حركتهم، أرسلوا دعاة إلى مناطق أخرى خارج العراق (البصرة والكوفة) ومن بينها بلاد المغرب الإسلامي، حيث استغلوا الظروف السياسية التي كانت تمرّ بها المنطقة فعملوا على استمالة السكان المحليين، وقد ساهمت الظروف التي كانت تعيشها

المنطقة بسبب السياسات المنتهجة من قبل الولاّة الأمويين اتّجاه الرعية بشكل كبير في انتشار أفكار هذه الحركة بسرعة، إذ لقيت آذانا صاغية بحيث شجّع ذلك الدعاة الإباضيين الذين بذلوا جهودا كبيرة سعوا من خلالها إلى تأسيس دولة تحمل مشعل دعوتهم.

ولا شك أنّ الدعاة الإباضيين قد سلكوا في سبيل الوصول إلى تحقيق الهدف منهجا معيّنا، فما هي الطرق التي انتهجها الإباضيون في سعيهم وراء إقامة دولة لهم في بلاد المغرب الإسلامي؟

لقد كانت للحركة الإباضية محاولات عديدة لإقامة أركان دولتهم، وذلك قبل تأسيس الدولة الرستمية الحاملة لشعارها، فما هي المحاولات الأولى للحركة لتأسيس دولة في المغرب الإسلامي وما هي أسباب فشلها ؟ سنحاول من خلال هذه المداخلة توضيح الرؤية والإجابة على التساؤلات المطروحة.

أولا : نشأة الحركة الإباضية بالمشرق:

تعود جذور الحركة الإباضية إلى بداية ظهور الانقسامات والخلافات داخل المجتمع الإسلامي، وكما هو معروف لدى جلّ المؤرّخين فواقعة صفّين كانت المنعرج الخطير في مسار التاريخ الإسلامي، ففيها برزت إلى الوجود فكرة التحزّب السياسي والتنصّر لفريق دون الآخر .

لقد كان لمقتل الخليفة عثمان بن عفان تداعيات سياسية خطيرة في التاريخ الإسلامي، إذ كانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة الأولى لظهور الخلاف ونشأة الفرق الإسلامية التي اختلفت في بداية أمرها حول قضية تولي منصب الخلافة(عوض خليفات.1982 :49)، ويتّفق كلّ المؤرّخين على أنّ أصول الفرقة الإباضية تعود إلى واقعة صفّين التاريخية سنة 36 هـ/ 656 م (إبراهيم بحاز.1993: 73).

وقد ترتّب عن المكيدة التي دعا معاوية من خلالها أصحابه إلى رفع المصاحف والنداء إلى حقن دماء المسلمين والتحكيم إلى كتاب الله عزّ وجلّ، ما يعرف في التاريخ الإسلامي بحادثة التحكيم التي كانت سبباً في انقسام صفّ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه إلى مناصر له وهم الشيعة، ورافض للتحكيم وهم الخوارج الذين خرجوا عن علي وبقوا أعداء لمعاوية وأتباعه من الشاميين. وعلى

الرغم من أنّ عليّا قد انتبه إلى مكيدة معاوية، إلاّ أنّه أمام إصرار أتباعه رضي بالتحكيم وقبل به (ابن الأثير. 1985: ج .01. 161).

ولماّ استقلّ الخوارج برأيهم في قضية التحكيم والإمامة ورفعوا شعار " لا حكم إلاّ لله" نزلوا قرية حروراء قرب الكوفة، ومن هنا لُقّبوا عند بعض المؤرّخين بالحرورية أو المحكّمة، وولّوا عبد الله بن وهب الراسبي[1] إماما عليهم (عوض خليفات. 1982: 52 – 53.)، ثمّ دعا المحكّمة بعد ذلك مؤيّديهم إلى الملاقاة في النهروان، في حين كان علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يريد استمالتهم إلى صفّه لمحاربة العدو المشترك وهو معاوية بن أبي سفيان وذاك بعد فشل قضية التحكيم، فرفضوا طلبه، ونزولا عند رغبة أنصاره قرّر علي التوجّه نحو النّهروان لمحاربة المحكّمة، فانتصر عليهم سنة 38 هـ/658 م (ابن الأثير.1985: ج . 1، ص. 165، 177).

لقد كانت هذه الهزيمة بمثابة ذكرى أليمة حفّزت الباقون من المحكّمة للثأر على قاتل أصحابهم، فتوالت ثوراتهم ضدّ علي إلى أن قُتل على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي(ابن الأثير. 1985: ج1 .187 - 188)، وبعد معركة النهروان تفرّق الخوارج، فقامت جماعات منهم بثورات عديدة ضدّ السلطة الأموية في الكوفة والبصرة، ولكن كلّ حركاتهم باءت بالفشل نظرا لافتقارهم إلى الوحدة والتنظيم ولتطرّف بعض أتباعهم، ممّا أدّى إلى إثارة غضب أهالي المدينة عليهم(عوض خليفات. 1982 : 64).

وفي المقابل كانت هناك جماعة بزعامة أبي بلال مرداس بن أدية التميمي انشقّت من النّهروان واتّخذت البصرة مقرّا لها، وآثرت حياة السلم وعدم اللجوء إلى حمل السلاح واستعملت منهج الإقناع والمناقشة لنشر آرائها وأفكارها، وقد أنتجت هذه الفرقة في تاريخ لاحق ما يسمّى بالحركة الإباضية التي كان التابعي المعروف جابر بن زيد[2] حاملا لواءها (عوض خليفات. د ت: 6 – 7).

ولقد كانت مشاركة الخوارج إلى جانب عبد الله بن الزبير في حربه ضدّ بني أمية آخر واقعة يجتمع فيه الخوارج لهدف مشترك(عوض خليفات. 1982: 70). وبقيت بعد ذلك حركة جابر بن زيد وعبد الله بن إباض تترقّب الأحداث إلى أن

تحوّل قول نافع بن الأزرق إلى عمل، فتبرّأت منه واعتبرته خروجاً عن الدين (فرحات الجعبري. 1987: 53)

تشير معظم المصادر التاريخية إلى أنّ اسم الفرقة مشتّق من اسم أحد المتحدثين باسمهم، ألا وهو عبد الله بن إباض، ويبدو أنّ هذه الفرقة ظهرت كجماعة مستقلّة سنة 65 هـ/684م عندما قرّر عبد الله بن اباض الانفصال نهائياً عن الخوارج. ولكن المصادر الإباضية تنسب لعبد الله بن إباض دورا ثانويا في الحركة مقارنة مع جابر بن زيد الأزدي العمّاني الذي تعتبره إمام المذهب ومؤسّس فقههم ومذهبهم، كما تذكر أنّ أقوال وأفعال عبد الله بن إباض إنّما كانت تصدر عن جابر (إبراهيم بحاز. 1993: 74- 75).

وقد كان دور جابر في الدعوة خفيّا، لذا فقد نُسب المذهب إلى ابن إباض، لكونه يتكلّم باسمهم، ويناظر أعداءهم.كما أنّ مراسلاته مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان سببا لجعله إمام ومؤسّس الفرقة الإباضية(عوض خليفات. د ت: 9 - 10).

ويبدو أنّ الحركة قد تقبّلت هذه التسمية على مضض أمام لإصرار مخالفيهم على تسميتهم بهذا الاسم، كما أنّهم يرفضون بشدّة انتمائهم إلى الخوارج، والدليل على ذلك أنّ أتباع هذه الفرقة كانوا يطلقون على أنفسهم قبل ذلك تسمية " المسلمين " أو "جماعة المسلمين" أو "أهل الدعوة". ونلاحظ ذلك في المصادر الأولى الإباضية مثل مدونة أبي غانم الخرساني[3].

وخلف أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة[4] جابراً في زعامة الدعوة بعد وفاة الحجاج وخروجه من السجن، كانت العلاقات اتّسمت بالودّ بين الإباضية والسلطة في عهد الخليفتين سليمان بن عبد الملك (96 - 99 هـ/715 - 717م) وعمر بن عبد العزيز(99 - 101 هـ/717 - 720م)، وقد استغلّ أبو عبيدة هذه المرحلة أحسن استغلال في تنظيم حركته من أجل تأسيس إمامة الظهور (جمعية التراث. 1999: ج 04: 874).

لقد قام أبو عبيدة بتنظيم الاتصال بين مركز الدعوة وحملة العلم، وأوصاهم بالرجوع إلى مشايخ البصرة في حالة حدوث خلاف بينهم (جمعية التراث. 1999 : 41).

وفي العقد الثالث من القرن الثاني الهجري استغلّ مشايخ الإباضية في البصرة الظروف التي كانت تمرّ بها الدولة الأموية، فأوعزوا إلى دعاتهم وحملة العلم فيهم إلى إعلان إمامة الظهور في كلّ من حضرموت واليمن وعمان وبلاد المغرب (جمعية التراث. 1999: 51).

2 - **نشاط الحركة الإباضية بالمغرب وتطوّرها**

لقد ساهمت الظروف السياسية العصيبة التي كان ينتهجها الولاّة الأمويون في أواخر القرن الأوّل وبداية القرن الثاني الهجري في المغرب الإسلامي بشكل كبير في انتشار المذهب الإباضي وإلى جانب المذهب الصفري بسرعة فائقة في أوساط سكّان شمال إفريقيا، إذ خلال سنوات قليلة ازداد عدد معتنقي المذهب الإباضي بشكل ملفت للانتباه.

في الحقيقة تبقى المعلومات حول تاريخ ولوج المذهب الإباضي إلى المغرب الإسلامي والتفاصيل حول دعاته الأوائل غامضة، وتعتبر المصادر التاريخية سلمة بن سعد[5] أوّل داعية إباضي نشط في شمال إفريقيا، ويمكن حصر فترة قدومه إلى بلاد المغرب الكبير بين سنة 95 - 110 هـ/ 713 – 728م، ويبدو أنّ وفوده إلى المنطقة تزامن مع مجيء عكرمة مولى بن عباس الدّاعية الصفري (عوض خليفات. 1982: 143).

إنّ سياسة الشدّة والاستبداد والجور التي كان ينتهجها بعض ولاّة بني أمية في بلاد المغرب، ولا سيّما في عهدي يزيد بن أبي مسلم الثّقفي وعبيد الله بن الحبحاب السّلولي اتّجاه البربر، بحيث اعتبروهم فيئا من المسلمين، وخمّسوهم، واتّخذوا منهم حرسا وبطانة وطالبوهم بدفع الجزية (موسى لقبال. 1969 :155 - 157)، ساهمت بشكل فعّال في تقبّل البربر أفكار الدّعاة القادمين، ولا سيّما أنّهم كانوا يدعون إلى المساواة والعدل بين المسلمين جميعا ولا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتّقوى. وهذه صفات تعود بالإسلام إلى نقائه الأوّلي. ومن هنا كانت حركتهم كردّ فعل لانحراف ولاّة الخلافة ومحاولة جادّة لتصحيح بعض أوضاع المسلمين، فاتّخذوا هذا مبّررا دينيا وشرعياً للثورة ضدّ الولاة ومن ورائهم الخلافة الأموية..

وكانت مهمّة سلمة بن سعد تتمثّل في ترغيب عدد من أفراد البربر للتوجّه نحو المشرق لتلقي العلم على يد إمام الإباضية، ويبدو أنّه نجح إلى حدّ كبير، إذ اعتنق المذهب عدد من أهل جبل نفوسة، فتوجّهوا نحو البصرة، ومن أشهر هؤلاء نذكر أبا عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني الذي تولّى مهمّة نشر الدعوة بعد وفاة سلمة ابن سعد. فانتشر المذهب الإباضي بسرعة مذهلة بين قبائل هوارة وزناتة وسدراتة ولواتة (عوض خليفات. 1982: 136).

3 – المساعي الأولى لتأسيس الدولة الإباضية:

لقد كان الإباضية في بلاد المغرب بحاجة ماسّة إلى تشكيل كيان سياسي مستقل تماما عن مركز الخلافة في المشرق يجمع شتاتهم، فكانت لهم عدّة محاولات لتحقيق هذا الهدف إلى أن توصّلوا إلى تأسيس دولة في المغرب الأوسط دامت قرابة قرنين من الزمن.

أ- المحاولة الأولى:

لقد حاول الإباضية تأسيس أوّل دولة مستقلّة تمثّل كيانهم في بلاد المغرب سنة 122 هـ/ 739م حيث اختاروا عبد الله بن مسعود التجيبي إماما عليهم في طرابلس، ولكن لم يدم عمر هذه الدولة طويلا، إذ سرعان ما تمكّن إلياس بن حبيب الذي ولاّه أخوه عبد الرحمن على طرابلس من القضاء عليها سنة 129 هـ/ 746م (سالم يعقوب. 1986: 60.)

ب – المحاولة الثانية:

لقد كان مقتل عبد الله بن مسعود التجيبي بمثابة شرارة لإشعال نار ثورة الإباضيين، فاختار إباضية طرابلس إسماعيل بن زياد النفوسي إماما جديدا. وقد نجح في الاستيلاء على مدينة قابس، ولم يستمر الأمر طويلا، حيث سرعان ما تمكّن جيش عبد الرحمن بن حبيب من القضاء عليه، فتمّ استرجاع طرابلس مرّة أخرى (محمّد علي دبوز: 1963: ج 03 . 188 - 195.)

وفيما بعد بايع الإباضون الحارث بن تليد الحضرمي وقاضيه عبد الجبار بن قيس المرادي فالتفّت القبائل البربرية من حولهما وتمّ للإباضية الاستيلاء على

طرابلس كلّها، ولم يتمكّن والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري القضاء عليهما، إلاّ باستعمال الحيلة فاغتالهما (رفعت فوزي عبد المطلب: .1973 :121 - 123)، لقد كان لمقتل هذين الشخصين أثر كبير في تفريق صفوف الإباضية، حيث اختلفوا في حقّهم فانقسموا.

جـ - المحاولة الثالثة وتأسيس دولة حقيقية في طرابلس:

لقد تأكّد الإباضية أنّ سبب إخفاقهم في المحاولتين السابقتين يعود أساسا إلى انكماش مذهبهم على طرابلس ونواحيها وعدم نضجهم في المجال السياسي، وعليه قرّروا ضرورة تفادي النقص، وذلك بتوسيع نطاق نشاطهم الدعوي خارج طرابلس ونواحيها، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بإيفاد بعثات علمية أخرى إلى المشرق للتفقّه في الدّين والسياسة على يد شيخ وزعيم الإباضية أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ورأوا ضرورة تشكيل هذه البعثة من رجال أكفّاء ينتمون إلى قبائل بربرية مختلفة، حتّى يتسنىّ لهم إقناع قبائلهم بعد رجوعهم لتقبّل هذا المذهب، وبناء على هذا اتّجهت نحو البصرة سنة 135 هـ بعثة علمية منظّمة من المغرب متكوّنة من إسماعيل بن درار الغدامسي وعبد الرحمن بن رستم من القيروان، وعاصم السدراتي، وداود القبلي النفزاوي. وأثناء وجودهم في البصرة توطّدت العلاقة بينهم وبين أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري. الذي قرّر الانضمام إلى الطلبة الأربعة المغاربة والتوجّه معهم إلى بلاد المغرب نظرا لتشديد الخناق على حضرموت واليمن من قبل العبّاسيين (.Chikh Bekri . 2005: 83).

وممّا لا شك فيه أنّ هذه البعثة قد حملت معها فكرة إنشاء دولة إباضية، حيث أنّهم استشاروا شيخهم بمجرد انتهاء تكوينهم واستئناس القوّة عند عودتهم إلى أهاليهم من إمكانية تأسيس دولة إباضية واختيار واحد منهم لتولّي منصب الإمام، فأشار عليهم بضرورة مبايعة أبي الخطّاب (رفعت فوزي عبد المطلب. 1973: 137 – 139.).

لا تذكر المصادر الإباضية وغيرها سوى تاريخ رجوع حملة العلم إلى بلاد المغرب وهي سنة 140 هـ بعد أن قضوا خمس سنوات في البصرة. وأنشؤوا بعد عودتهم مجالس سريّة خاصّة لتعليم المذهب، وبعد وقت قصير برز عدد من العلماء الإباضيين من خريجي هذه المدارس ولقّبوا بتلاميذ حملة العلم.

وبعد عودة حملة العلم إلى بلاد المغرب وجدوا الظّروف مناسبة لتأسيس الدولة الإباضية التي طالما كافح من أجلها أهالي طرابلس فأخفقوا في تجسيدها - كما ذكرنا ذلك سابقا - ولكنّ ذلك الاستعداد الذي كان لدى إباضية المغرب الأدنى جعلهم لا يتردّدون في مبايعة أبي الخطاب عبد الأعلى إماما، وهذا الأخير اشترط عليهم مقابل قبول الإمامة عدم إثارة قضية الحارث وعبد الجبار، فاستولى على طرابلس وطرد عاملها عمرو ين عثمان القرشي، ثمّ عيّن ابن درار الغدامسي قاضيا، وعبد الرحمن بن رستم عاملاً على سرت.

ولمّا علم أبو الخطاب بتصرّفات قبيلة ورفجومة الصفرية في مدينة القيروان قرّر السير إليها، فتمكّن من الاستيلاء على القيروان سنة 141 هـ/ 758م ليعيّن ابن رستم واليا عليها، وهكذا أصبحت إفريقية تابعة للدولة الإباضية بطرابلس (موسى لقبال. 1969: 228 –233).

لقد ساء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور انفصال إفريقية عن الإمبراطورية الإسلامية، فأمر محمّد بن الأشعث والي مصر باسترجاعها، فأرسل في مرّتين جيشا لمحاربة ابن الخطاب إلاّ أنّ الجيش الخلافي انهزم أمام إصرار الإباضية على التحكّم في أمر إفريقية، وعليه قرّر ابن الأشعث السير بنفسه لملاقاة فلول الإباضية التي بدأ يظهر في صفوفها الانشقاق، فتمّ له القضاء على أبي الخطاب وجيشه في معركة تاورغا سنة 144 هـ/ 761م، وبالتّالي القضاء على الدولة الإباضية بطرابلس (Chikh Bekri. 2005: 49 – 54).

4 – قيام الدولة الرستمية في المغرب الأوسط:

صارت الفرقة الإباضية بعد مقتل أبي الخطاب في حاجة ماسّة إلى كيان سياسي وجغرافي يجمع شتاتها، ويكون بمنآى عن النفوذ العباسي،. فكانت مدينة تيهرت التي ستصبح عاصمة الدولة الإباضية الجديدة الموقع الاستراتيجي المناسب لتلبية هذه الرغبة..

وفعلا فبعد إفلات عبد الرحمن بن رستم من قبضة ابن الأشعث واستقراره بجبل سوفجّج المنيع، ولم يكن اختيار القائد الفارسي لجبل سوفجج عشوائيا بل كان يدرك مناعة وحصانة المكان الطبيعية ضدّ الغزاة، وكان على علم بملاحقة الجيش العباسي له بقيادة محمد بن الأشعث. ويبدو أنّ فلول الإباضية كانت تتجمّع

وتلتفّ حول عبد الرحمن وهو في طريقه نحو جبل سوفجج الذي لم يستطع ابن الأشعت من اقتحامه رغم الحصار الذي ضربه على المنطقة لوقت طويل (إبراهيم بحاز. 1993: 82)، ولمّا يئس وخاف من انقلاب الوضع عليه في المغرب الأدنى فكّ الحصار وعاد إلى القيروان (أبو زكرياء. 1985: 47) دون أن يحقّق مآربه.

وبمجرد انتشار أخبار نجاح ابن رستم على خصمه العباسي بدأت تتوافد جموع الإباضية بما فيهم علماؤها وفقهاؤها إلى المنطقة لا سيّما بعد القضاء على الإمامة الإباضية التي قامت في المغرب الأدنى تحت قيادة أبي حاتم الملزوزي سنة 155 هـ (ابن عذارى المراكشي.1984: 79). ولمّا تكاثر عددهم ورأوا ضرورة إنشاء كيان سياسي لهم، جاءت فكرة بناء مدينة تيهرت ما بين سنة 156 - 160 هـ/ 772- 776م (إبراهيم بحاز. 1993: 84 ـ 85)، وأعلنوها عاصمة لدولتهم الجديدة .

يكاد يكون نمو العاصمة تيهرت أسطوريا ففي ظرف ثلاث سنوات انتقلت من قرية صغيرة تتقبّل المساعدات من إباضية المشرق إلى مدينة غنية قوية وحاضرة من الحواضر الكبرى بالمغرب الإسلامي آنذاك وقبلة للعلماء والتجّار من كلّ أرجاء العالم الإسلامي، ويقول ابن الصغير في هذا الصّدد: "ليس أحدا ينزل بهم من الغرباء، إلاّ استوطن معهم وابتنى بين ظهرانهم، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في الرعي" (ابن الصغير . 1986 :31 ـ 32).

انعقد مجلس يضمّ رؤساء القبائل الإباضية وفقهاءها لاختيار إمام يحكم بينهم وينصف المظلوم ويقيم الصلاة وتُؤدّى إليه الزكاة ويقسّم الفيء فتمّت البيعة لعبد الرحمن بن رستم الفارسي بالرغم من حضور رأس أو رئيسان من كلّ قبيلة في المجلس وكلّهم أهل للإمامة، وقد تمّ هذا الاختيار حسب مؤرّخ الدولة الرستمية ابن الصغير انطلاقا من كون ابن رستم كان غريبا بين البربر وليس لديه قبيلة تحميه ليسهل عزله في حالة انحرافه عن الدين (ابن الصغير. 1986: 26).

لم يكن هذا العامل الوحيد في عملية اختيار ابن رستم إماما ففضلا عن ما ذكرناه كان عبد الرحمن من بين حملة العلم الخمسة الذين توجّهوا إلى المشرق للتفقّه في المذهب الإباضي على يد شيخ الإباضية أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، كما كان قبل ذلك عاملا لأبي الخطاب على القيروان (الشماخي: 140) أي أنّ الإباضية قد تعرّفوا على عدله وسيرته عن قرب وقد تمّت البيعة لعبد الرحمن سنة

161 هـ. وكانت هذه البيعة بمثابة إعلان رسمي لقيام دولة إباضية بالمغرب الأوسط أطلق عليها اسم أسرة مؤسّسها الدولة الرستمية .

نظام الحكم في الدولة الرستمية:

يبدو من خلال الحوار الذي دار بين فقهاء ورؤساء القبائل الإباضية أنّ الإباضية اختاروا لقب الإمام لرئيس دولتهم، وتدلّ الطريقة التي تمّ بها اختيار عبد الرحمن بن رستم إماما على تطبيق مبدأ الشورى والمنهج الانتخابي في عملية الانتقاء، وقد راعى الإباضية كلّ القواعد المقنّنة في المذهب الإباضي في عملية الاختيار. فكان النظام إذاً جمهوري ديمقراطي من حيث المبدأ، ولكن هذا النظام تغيّر بمجرد وفاة عبد الرحمن الذي عيّن لخلافته سبعة من فقهاء الإباضية ومن بينهم ابنه عبد الوهاب وقد أثارت هذه القضية جدلا بين المؤرّخين باعتبار أنّ عبد الرحمن كان يريد من وراء ترشيح ابنه تزكيته من قبل المرشحين الآخرين (محمد عيسى الحريري. 1987: 226)، في حين شبّه المؤرّخون الإباضيون ابن رستم في هذه العملية بعمر ابن الخطاب رضي الله عنه (أبو زكرياء. 1985 : 88 – 89)، بالرغم من أنّ هذا الأخير لم يجعل ابنه ضمن المرشحين بل عيّنه مستشارا فقط، وبعد عبد الوهاب أصبح الحكم وراثيا داخل الأسرة الرستمية.

لقد قسّم الرستميون دولتهم إلى عمالات ومن أهمّها قفصة وسرت ونفزاوة وقنطرارة وجبل نفوسة وقابس وجبل دمر. وأسندوا جمع الجباية وتحصيل بيت المال إلى عمالهم بالأقاليم (الباروني سليمان. ب ت: ج 1، . 165).

اتّبع الرستميون التنظيم الإداري السائد آنذاك في المشرق، والذي يكفل ضبط الأمور في دولتهم، ويأتي القضاة في الطبقة الأولى في جهاز الدولة، وقد حظوا باحترام كبير من قبل الأئمة، حيث لم يسمح هؤلاء القضاة للأئمة بالتدخل في شؤونهم. ويأتي من بعدهم الشرطة الذين يقومون بأعمال الحراسة والمحافظة على الأمن والحسبة (محمد عيسى الحريري.1987: 230)، وإلى جانب هؤلاء اتّخذ الرستميون الوزراء والكتاب والحراس وكتّاب الدواوين، ومن أشهر الشخصيات الذين تقلّدوا منصب الوزير السمح بن أبي الخطّاب ومحمد بن عرفة...

إنّ الرّوح السّمحة التي امتاز بها إباضيو تيهرت كفلت تضامنا للمجتمع التيهرتي وساعدته على التئام الجراح التي سبّبتها كثرة الانقسامات والانشقاقات أحيانا طيلة أيام الدولة الرستمية، إلاّ أنّ هذه الانقسامات والصّراعات بين أفراد المجتمع وحتّى بين الإباضية أنفسهم (ظهور فرق جديدة من داخل الإباضية مثل النكارية والخلفية والنفاثية....وغيرها) أدّت إلى تقهقر الدولة، فأصبحت لقمة سائغة أمام الفاطميين (إحسان عباس. 1972: 69- 70) الذين تمكّنوا من القضاء عليها دون عناء كبير.

وإضافة إلى ما سبق كانت معركة مانو التي هزم فيها الإباضيون أمام أبي العباس بن إبراهيم الأغلبي سنة 283 هـ/896م (أبو زكرياء. 1985: 150 – 154) السبب المباشر لضعف

الجيش الرستمي واستسلامه بسهولة للفاطميين سنة 296 هـ/909م. وبسقوط الدولة الرستمية تلاشت جموع الإباضية وبدأ عدد أتباعها في تقلّص مستمر.

بعض التراجم:

1 - عبد الله بن وهب الرّاسبي هو عبد الله بن وهب بن راسب بن يدعان بن مالك بن نصر من قبيلة الأزد.أدرك النبيﷺ وشارك في فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، كان من أنصار علي كرّم الله وجهه في معركة صفين، ثم أنكر التحكيم.بايعنه المحكمة سنة 37 هـ / 657 م، وقتله هانئ بن خطاب الأرجي وزياد بن حفص في سنة 38 هـ /658 م في معركة النّهروان.يعتبره الإباضية من أئمتهم. ينظر فرحات الجعبري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، ج:01، جمعية التراث، القرارة، 1987، ص 47.

2 - جابر بن زيد الأزدي الجوفي البصري العماني يلقب بأبي الشّعثاء،أصله من فرق (بلدة من أعمال نزوى) ولد سنة 21 هـ/ 642 م رحل في طلب العلم وصاحب عبد الله بن العباس وأخذ عنه العلم، كما أخذ عن عدد كبير من الصحابة إذ يقول: أدركت سبعين رجلا من أهل بدر فحويت ما بين أظهرهم من العلم إلاّ البحر الذي يعني به أبي العباس رضي الله عنه، . لقد.استقر في البصرة ونسب إليها ، ويعدّ أصل المذهبي الإباضي، له ديوان مفقود جمع فيه الأحاديث. أخذ عن جابر العلم عدد كبير من الطلبة أبرزهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وعنه روى الربيع بن حبيب في كتابه الجامع الصحيح الذي يعدّ عمدة المذهب الإباضي، وقد توفي سنة 93 هـ / 710 – 711 م. ينظر: جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي منذ القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، مج:2، المطبعة العربية، غرداية 1999، ص : 217 – 223 .

3 - أبو غانم الخرساني، درس بالبصرة، وأخذ عن تلاميذ أبي عبيدة (ق 02هـ/ 08 م) وألّف كتباً من أهمّها المدونة الكبرى تحوي أقوال تلاميذ أبي عبيدة في الفقه. رجل في أواخر القرن الثاني للهجرة إلى تيهرت. وقد نُسخت هذه المدونة من طرف عمروس بن فتح. ينظر: فرحات الجعبيري: المرجع السابق، ص:105

4 - هو أبو عبيدة مسلم بن كريمة، توفي حوالي 145هـ/ 762م كان تميمياً بالولاء، أخذ العلم عن جابر بن زيد وجعفر السّمّاك صحار العبيدي وبإشارة منه أسّس الإباضية دولا مستقلّة في كلّ من المغرب وحضرموت وتخرج على يده عدد من حملة العلم الذين نشروا المذهب في مختلف البلاد الإسلامية.
ينظر: فرحات الجعبيري: المرجع نفسه ، ص : 104

5 - سلمة بن سعد بن علي بن أسد الحضرمي اليمني عالم وداعية إباضي أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وعن ضمام بن السائب، يعدّ أوّل داعية قدم إلى بلاد المغرب لنشر المذهب الإباضي رفقة الداعية الصفري عكرمة مولى بن عباس.اعتمادا على تاريخ وفاة عكرمة الذي يقع بين السنوات 100 - 110 هـ . ويذكر بعض المؤرخين أنّ أقدام سلمة وطئت بلاد المغرب بين سنة 95 - 105 هـ، وقد توفي أثناء عودته إلى المشرق لأداء فريضة الحج. ينظر : جمعية التراث : المرجع نفسه ، ج 3، ، ص : 391 - 392. وينظر أيضا عوض خليفات: النّظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ط:1، عمان 1982، ص: 16 - 17.

قائمة المصادر والمراجع

1 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج :01 ط :05، دار الكتاب العربي، بيروت 1985
2 - أبو زكرياء يحي بن أبي بكر : كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، تح عبد الرحمن أيوب ، الدار التونسية للنشر تونس 1985

3 - ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمّد الناصر، بحاز ابراهيم، المطبوعات الجميلة، الجزائر 1986

4 - ابن عذارى المراكشي أبو عبد الله محمد : البيان المغرب في أخبار إفريقية والمغرب ، تح : ج . س. كولان وأ. ليفي بروفنصال ، ج : 1 ، دار الثقافة ، بيروت 1984

5 - سالم يعقوب : تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنش، تونس 1986

6 - الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد : كتاب السير ، طبعة حجرية ، قسنطينة 1301 هـ

6 - إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط :2 ،جمعية التراث، القرارة 1993

7 - إحسان عباس : المجتمع التاهرتي في العهد الرستمي، مجلة العلم والإيمان، ع 31 و32، تونس 1972

8 - الباروني سليمان بن عبد اللع النفوسي : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، ج 1 ، مطبعة الأزهار البارونية ، د.ت

9 - جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي منذ القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، مج:2، المطبعة العربية، غرداية 1999

10 - رفعت فوزي عبد المطلب: الخلافة والخوارج في المغرب العربي الصراع بينهما حتّى قيام دولة الأغالبة، ط:1 ، القاهرة 1973

11 - فرحات الجعبري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، ج:01، جمعية التراث، القرارة، 1987

12 - عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، مطابع دار الشعب، 1982

13 - عوض خليفات :الأصول التاريخية للفرقة الإباضية ،عمان – الأردن د . ت

14 - عوض خليفات: النّظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ط:1، عمان 1982

15 - محمّد علي : دبوز: :تاريخ المغرب الكبير، ج :03 ، ط :01، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1963،

16 - محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط ، ط : 3 ، دار القلم ، بيروت 1987

17 - موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ط :1، مطبعة البعث، قسنطينة 1969

18- Chikh Bekri : *Le royaume rostomide le premier état Algérien*, Ed :E.N.A.G, Alger 2005.